تقارير علمية

المؤتمر العلمي الدولي بعنوان:
الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور
وإعادة تأسيس العقل الفقهي الإسلامي
تونس: ١٢-١٣ ربيع الثاني ١٤٣٥هـ/١٢-١٣ فبراير/شباط ٢٠١٤م

جمال الدّين دراويل*

نظّم المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ مكتب تونس، بالتعاون مع جامعة الزيتونة مؤتمراً علميّاً دولياً بعنوان "الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور وإعادة تأسيس العقل الفقهي الإسلامي"، انعقدت أشغاله بمدرج عبد الرحمن ابن خلدون بجامعة الزيتونة. وقد توزّعت أعمال المؤتمر على أربع جلسات علميّة.

وقد جاءت فكرة عقد المؤتمر من الوعي بضرورة القيام بعملية نقد ثقافي للمناويل (النماذج) والأنساق الفكرية التقليدية عامّة، وللعقل الفقهي الإسلامي خاصّة؛ من أجل إعادة العافية والفاعلية للفكر والتشريع الإسلاميين؛ وللإقناع بأنّهما منبثقان من رسالة جاءت للحياة والأحياء؛ وذلك من خلال تزويد العقل الفقهي بآليات منهجية ومعرفية جديدة متجدّدة، تُرفِّع من قيمة أدائه في رصد سيرورة المجتمع المعاصر؛ وإمداده بالمعالجات التشريعية المتوازنة التي تحفظ للإنسان مكانته، وللعقل دوره، وللتاريخ اعتباره؛ وتوفّر للعقل الفقهيّ إمكانات المساهمة في تطوير المباحث القانونية المعاصرة، تحقيقاً للتوازن المطلوب بين مقتضيات التواصل الواعي والفاعل مع متغيّرات الزمان والمكان من ناحية، والقدرة المتجدّدة على ملاحقة مبتكرات الحكمة البشريّة في المباحث التشريعية عامّة وفي المبحث الحقوقي خاصّة من ناحية ثانية، ليتسنّى للمسلمين: أفراداً ومجتمعات اجتناب حرج الصّدام بين النّص والواقع، وليدخل الفكر والتشريع الإسلاميان في مجرى التّاريخ،

* أستاذ الفكر الحديث بالجامعة التّونسية ومستشار المعهد العالمي للفكر الإسلامي في تونس. البريد الإلكتروني: drawajih@live.fr

وينسجما مع حركة الحضارة البشريّة بثقة وتبصّر، تنميةً لشخصية الفرد بإعلاء معاني الإنسانية فيه، ودفع الاجتماع الإنساني إلى أعلى درجات التمدّن والتحضّر المتاحة في كلّ عصر.

في الجلسة الافتتاحية استمع المؤتمرون إلى كلمات الأساتذة: الدكتور جمال الدين دراويل؛ أستاذ الفكر الحديث بالجامعة التّونسية ومستشار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، والدكتور عبد المجيد النجار؛ رئيس فرع تونس للاتّحاد العالمي لعلماء المسلمين، والدكتور عبد الجليل سالم؛ رئيس جامعة الزّيتونة. وقد أشاد المتكلّمون في الافتتاح بأهمية التعاون بين المؤسّسات ذات الاهتمام المشترك بتجديد الفكر الإسلامي وتطويره منهجياً ومعرفياً، وأشاروا إلى أنّ هذا المؤتمر الذي نُظّم بالتّعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجامعة الزّيتونة بادرة خير، ودعوا إلى أن تتواصل مثل هذه اللقاءات، مؤكّدين غنى المدوّنة العاشورية وجدارتها بمزيد النّبش والمساءلة المعرفية.

وتوزّعت جلسات المؤتمر على أربع جلسات في يومين، فضلاً عن محاضرة الجلسة الافتتاحية، وتوزع الوقت المخصص لكل جلسة على نصفين: الأول لعرض البحوث، والثاني للتعقيب عليها ومناقشتها، وقد كان لهذه المناقشات والمداخلات أثرها في إغناء بحوث المؤتمر.

في الجلسة العلميّة الأولى التي ترأسها الدكتور هشام قريسة؛ أستاذ علم أصول الفقه ونائب رئيس جامعة الزيتونة، تمّت مناقشة ثلاث ورقات، تحدث فيها كل من الدكتور عبد المجيد النجار. وجاءت ورقته بعنوان: "المنزع المقاصدي لدى ابن عاشور: من شأن الفرد إلى شأن الجماعة"، حلّل فيه الدكتور النجّار نزوع ابن عاشور إلى بيان مسؤوليات الجماعة الشرعية والحضارية، بخلاف ما استقرّ في المدوّنة الفقهية التّقليدية من انصراف يكاد يكون مطلقاً للاهتمام بالشّأن الفردي، ضارباً لذلك أمثلة من المنوال (النموذج) المقاصدي لابن عاشور في كتابه "مقاصد الشريعة الإسلاميّة" ومن فتاويه بوصفها تطبيقات له.

وكانت الورقة الثانية للدكتور جمال الدين دراويل، وهي بعنوان "الأبعاد الحضارية للمنزع المقاصدي لدى ابن عاشور"، وفيها بيّن الدكتور دراويل أنّ المنوال المقاصدي لدى

ابن عاشور هو رفض لاستحواذ النظرة الحرفيّة والمذهبية على المبحث الفقهي لصالح توسيع أفق النظر إلى أبعد مدى، كما بيّن أنّ المنوال المقاصدي هو "أنسنة" للمبحث التشريعي وإعادة له إلى "مجرى التاريخ"، وأنّ الاتجاه المقاصدي هو إعادة الحيوية بـ"الاجتهاد الواجب" للمبحث التشريعي الذي أتى عليه حين من الدّهر وهو قابع داخل الأُطُر المغلَقة للمنظومة الفقهيّة التقليدية لا يتخطاها، لا سيما بعد رفع شعار "غلق باب الاجتهاد".

الورقة الثالثة كانت للدكتوره أم نائل بركاني من الجزائر، وهي بعنوان "مرتكزات الفقه الحضاري عند ابن عاشور"، وفيها بَيَّنَت أنّ ابن عاشور عَمَدَ إلى وضع مرتكزات، يرى أنها ضرورية في الاجتهاد المعاصر من أجل التأسيس للفقه الحضاري، الذي يعتمد مفهوم الأمة محوراً لها، فينطلق بالاجتهاد من القضايا الفردية، إلى الاهتمام بقضايا المجتمع والأمة، من خلال إعادة النظر في جملة من المفاهيم، وتفعيلها خدمةً لمصالح الأمة.

أمّا الجلسة العلميّة الثانية فترأسها الدكتور عبد المجيد النجار. وتمّت فيها مناقشة ثلاث ورقات، تحدث في الورقة الأولى الدكتور مصدق الجليدي من تونس عن: "مقاصد الشريعة وطبائع العمران البشري: مدخل إلى بناء علوم إنسانية تطبيقية"؛ إذ رأى أنه على الرغم من تجديدية ابن عاشور في مجال المقاصد الشرعية، فإن ثمة حاجة للكشف عن اللحظة المعرفية الفريدة التي بنى فيها ابن خلدون المقاصد الشرعية على قوانين وطبائع العمران البشري، فاتحاً الباب بامتياز أمام رفع الحواجز المصطنعة بين الشرعيات والإنسانيات، وبين علوم الشريعة وعلوم الطبيعة بشقيها المادي والإنساني. ودعا الدكتور الجليدي إلى تطوير العلوم الإنسانية الأصيلة المبدعة التي تعين على فهم الواقع في كامل تعقداته وتشعباته فهماً علمياً نوعياً دقيقاً، يمكّن من تشخيص معضلاته وتعيين أنجع الحلول لمشكلاته.

وكانت الورقة الثانية للدكتور محمد همام؛ أستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب، وهي بعنوان: "مبحث العلوم وتصنيفها عند ابن عاشور: علم المقاصد نموذجاً". فبَيّنَت الورقة توظيف ابن عاشور لمبحث

تصنيف العلوم، بوصفه مبحثاً معرفياً دقيقاً، في تنظيم المعرفة المقاصدية ومباحثها، وفق رؤية تقوم على النقد والتجديد والإبداع، وتجاوز محدودية المباحث الأصولية وتقليديتها وشكلانيتها. ورأت الورقة أن جهود ابن عاشور تعبّر عن موقف نقدي لما ينبغي أن تكون عليه العلوم الإسلامية، لذلك سعى إلى وضع المبادئ والأسس التي يقوم عليها "علم المقاصد".

الورقة الثالثة كانت للدكتور إبراهيم محمد زين من السودان؛ عميد كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وهي بعنوان "إعادة تأسيس العقل الفقهي عند ابن عاشور وقواعد النظر في تراثه العلمي"؛ إذ رأى الباحث أنّه لا بدّ من بيان أن القصد من إعادة التأسيس يدخل في صميم التجديد العلمي والمنهجي الذي يُعنى بالأوليات ومدارك العقول، للإجابة عن الأسئلة المعاصرة الكلية التي تصل بين مجال الإلهيات والفقهيات، وفق فهم منضبط للغايات الكلية المتعلقة بالتعريف بمقاصد المكلَّف والمكلِّف في اجتماعه الإنساني، ومعنى حياته وصلته بالكون الذي سُخِّر له والقيم الحاكمة لكل ذلك، وفق نسق قيمي تُرشِّد معانيه وصلاته الرؤية الكونية التوحيدية. وفي ضوء هذا التحديد لمعنى إعادة التأسيس وآفاقها، يصوّب النظر في التراث العلمي المتداخل والمترابط الذي خلفه ابن عاشور بوصفه نسقاً علميّاً متكاملاً، صدر عن رؤية كلية للإجابة عن أسئلة التأسيس.

وفي صبيحة اليوم الثاني استمع المؤتمرون إلى ثلاث مداخلات، وذلك في الجلسة العلمية الثالثة التي ترأسها الدكتور محمد الطاهر الميساوي؛ أستاذ علم مقاصد الشريعة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. قام بالمداخلة الأولى الدكتور محمد الشتيوي؛ مدير المعهد العالي لأصول الدين بجامعة الزّيتونة، تونس، وكانت مداخلته بعنوان "من التعليل القياسي إلى التعليل المقاصدي". وفيها عرّف الدكتور الشتيوي التعليل القياسي النّابع من قاعدة قياس الشاهد على الغائب، مبيّناً أنّه قياس يصادف الحقّ مرّة ولا يصادفه مرّات، بالنظر إلى احتمالات الخلط بين ما ورد من النصوص للتشريع الخاص وأخذه من عديد المتفقهين، بوصفه عامّاً وما شابه، بينما حقيقة القياس المقاصدي أنّه الاجتهاد الجماعي الذي يبحث عن وجه المصلحة

المراد تحقّقها من خلال الحكم الشرعي، من أوجهها كافّة. وضربت الورقة أمثلة توضيحيّة على التعليل القياسي والتعليل المقاصدي.

وقامت الدكتوره وسيلة خلفي من الجزائر بالمداخلة الثانية المعنونة: "العقل الفقهي بين الاستنباط والتنزيل: قراءة في نقد البنية الأصولية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور"؛ فكشفت الورقة عن أنّ العقل الفقهي يتحرّك على مستويين أساسيين: مستوى فقه الاستنباط: وهو المستوى الذي يتعامل فيه العقل مع نصوص الشّرع المتعلّقة بأفعال المكلّفين، فهماً وتحليلاً، لاستخلاص الأحكام الشّرعية، ومستوى فقه التّنزيل: وهو المستوى الذي يتعامل فيه العقل مع الواقع والمتوقّع، المتعلّق بالأعيان أو الأشخاص أفراداً ومجموعات، من حيث إنها مناطات الأحكام الشّرعية. وهكذا يستقلُّ كلُّ علم بوظيفته، فبينما يَبْنِي أصولُ الفقه العقلَ المستنبطَ للأحكام الشّرعية بما فيه من قواعد بيانية في فقه الخطاب، فإن مقاصد الشّريعة تبني العقلَ الفقهي المُنزّل للأحكام الشّرعية على مناطاتها من الحوادث والحادثات بما فيها من ضبط لمقاصد الشّارع، وبيان لمقاصد المكلفين المؤثّرة في تنزيل الأحكام.

وجاءت المداخلة الثالثة للدكتور برهان النفاتي؛ أستاذ المقاصد بجامعة الزيّتونة بعنوان "منهج الاجتهاد من النقد إلى التجديد". ورأى الدكتور النفّاتي أنّ ابن عاشور اتّخذ العمليّة النقدية للعقل الفقهي التقليدي ممرّاً إجباريّاً لإعادة البناء والتّأسيس؛ إذ العمليّة النقدية لم تمثّل هدفاً لذاتها، بل كانت مقدّمة لازمة ونقطة ارتكاز لإعادة ابن عاشور النظر في البنية الفقهيّة التقليدية، وانتهت الورقة إلى بيان النزوع التأسيسي لدى ابن عاشور، وأنّ النقد مَثَّلَ أهم ركيزة لهذا النزوع.

وعُقدت الجلسة الرابعة والأخيرة، برئاسة الدكتور إبراهيم محمد زين. ونوقشت في هذه الجلسة ورقتان؛ الورقة الأولى قدّمها الدكتور محمد الطاهر الميساوي وجاءت بعنوان "ما بين أبي إسحاق الشاطبي والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: من إعادة بناء أصول الفقه إلى بناء نسق القيم". وتناولت هذه الورقة التقدير الذي وصل إليه الشاطبي وهو ينظر في التطور التاريخي والبناء المنهجي للدرس الفقهي والبحث الأصولي بما آل إليه من تكلُّس

في الأول وعدم إنتاج في الثاني، الأمر الذي اقتضاه النهوض بما يمكن عدّه مراجعة شاملة لبنية علم أصول الفقه وأدواته المنهجية سعياً لإعادة ترتيب لمسائله وبناء مباحثه جميعاً على محور أساسي هو مقاصد الشريعة. وتطرّقت الورقة إلى مواصلة ابن عاشور في العصر الحديث للمهمة من حيث ما انتهى الشاطبي، فلم تكن مقاصد الشريعة عنده مدخلاً لإعادة ماء الحياة إلى أصول الفقه فحسب، وإنما قاعدة للنظر في القيم الكلية الثاوية في نصوص الشريعة والناظمة لتعاليمها وأحكامها والمقوّمة للوجود الاجتماعي والتاريخي للإنسان في أفعاله وعلاقاته ومؤسساته. فكان جهدُه العلمي والمنهجي في النظر في علوم التشريع متوجهاً إلى ما يمكن عدّه رؤيةً وعملاً توسّل بهما إلى تقديم بناء نسقي لقيم الشريعة.

أمّا الورقة الثانية، فقدّمها الدكتور حسن ابراهيم الهنداوي؛ أستاذ مشارك بقسم الفقه وأصول الفقه، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وجاءت بعنوان "استقلال علم مقاصد الشريعة عن علم أصول الفقه لدى ابن عاشور: دراسة نقدية". كشفت الورقة عن أهمية ما ورد في كتاب "مقاصد الشريعة الإسلاميّة" لابن عاشور، من دعوة إلى تأسيس علم خاص قال "نسميه علم مقاصد الشريعة، ونترك علم أصول الفقه على حاله". وكانت هذه الدعوة نتيجة لما لاحظه ابن عاشور من كون مباحث أصول الفقه على الحال التي آلت إليها كانت "بمعزل عن بيان حكمة الشريعة العامة ومقاصدها العامة والخاصة في أحكامها". فهذه الدعوة من ابن عاشور تطورت فيما بعد إلى دعوى باستقلاليّة مقاصد الشريعة عن علم أصول الفقه. وأبرزت الورقة اختلاف الباحثين حول دعوة ابن عاشور إلى تأسيس علم مستقل يختص بالبحث في مقاصد الشريعة وقضاياها، بين مؤيد مستبشر ورافض متشائم.

واختَتَمَ المؤتمرُ أعمالَه في الجلسة التقويمية الختامية بكلمتين للدكتور عبد الجليل سالم والدكتور جمال الدين دراويل، اللذين أشادا بجهود الأساتذة المشاركين وبالمتابعة الإيجابية للحضور المكثّف من الباحثين والطلبة والمجتمع المدني ووسائل الإعلام، وأشارا إلى العزم المعقود بينهما على مواصلة التّعاون البنّاء من أجل خدمة الفكر الإسلامي، وإعادة العافية والتوازن والفاعلية له.

وتضمّنت الجلسة الختامية تلاوة البيان الختامي والتوصيات؛ إذ شُكّلت لجنة البيان الختامي والتوصيات من ممثّل عن كل من المؤسستين المنظِّمة للمؤتمر، إضافة إلى ممثّلين عن الاتحاد العام التونسي للطلبة. وقد تابعت اللجنة فعاليات المؤتمر، وتسلّمت مقترحات المشاركين وقامت بتحرير التوصيات الآتية:

١. إيلاء مزيد من الاهتمام بعلم "مقاصد الشريعة الإسلامية" في المؤسسات العلمية المختصّة، بوصفه العلم الذي يعالج فلسفة التشريع وروحه، ويصلح لأن يمثّل نقطة ارتكاز لمباحث مستجدّة.

٢. دعوة أهل التخصص من العلماء والباحثين إلى إعطاء لحظة ابن عاشور ما هي به جديرة به من البحث والمساءلة والتحليل والإضافة والامتداد.

٣. التّأكيد على أنّ استفادة علم مقاصد الشريعة من العلوم اللغوية والإنسانية والاجتماعيّة أصبح ممرّاً إجباريّاً لتطوير علم مقاصد الشريعة وإكسابه آليات منهجيّة ومعرفيّة، تُرفِّع من قيمة أدائه (رصداً للقضايا ومعالجة تشريعية لها) باعتبار الحاجة الأساسية لهذه العلوم في معرفة الإنسان والمجتمع ونحلة المعاش وهو ما لا غنى للفقيه عنه.

٤. دعوة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بوصفه مؤسسة رائدة، إلى مزيد المضاء في الاعتناء بهذه العلوم، وربط الصلة بينها وبين علم المقاصد.

٥. بعث وإحياء كرسي "علم مقاصد الشريعة الإسلامية" بجامعة الزيتونة وبالمؤسسات العلمية ذات الاختصاص من أجل تطوير هذا العلم، واستئناف لحظة ابن عاشور: ابتكاراً تشريعياً وتأسيساً فقهياً لمحدثات الأقضية والشّؤون.

٦. المطالبة بمؤتمر دوري حول ابن عاشور، وتخصيص كل دورة لمبحث من المباحث التي برّز فيه ابن عاشور (لغة/ بلاغة/ تفسير/ مقاصد/ أدب/ تحقيق).